الفلسفة
نَشأتُها ـ وتَطورها

معنى الفلسفة:

إن الفلسفة هي وليدة نظرة العقل البشري إلى الوجود في أصله وجوهره ومصيره. فيُقلِّبُ العقلُ الكونَ صفحةً بعد صفحة ليدركَ ماهيّةَ الموجودات فيه مُرتقياً من علة إلى علة حتَّى يصلَ إلى العلّة الأولى.

فالفلسفة: هي البحث في ماهيَّة الأشياء وأصولها وحقيقتها، أو علاقة بعضها ببعض.

والفلسفة: تأمُّلٌ ومُشاهدةٌ. وقد قال «فيثاغورس»: ((إنَّ الحياة أشبهُ بحفلة رياضية، يأتي إليها بعضُ الناس للاشتراك في اللَّعب، وآخرون يأتون للمُبادلات التِّجارية، وآخرون يأتون للتأمُّل والمشاهدة: وهم صفوةُ المواطنين)).

أصلُ كلمة (فلسفة):

قال «سقراط»: ((إنّ الفلسفة هي: محبَّةُ الحكمة. والفيلسوفُ هو: الإنسان المُحبُّ للحكمة؛ لأنه لا حكيمَ إلاَّ اللهُ، والحكمةُ له وحدَه)).

وكلمة (فلسفة): يُونانيَّةُ الأصل، مُشتقّةٌ من: «فيلوس»، (أي: الحب). «سوفيا»، (أي: الحكمة). «سوفوس الحكيم»، أي: الإنسان المُحبُّ للحكمة؛ الباحثُ عن الحقيقة.

والفلسفة: هي البحثُ عن العالَم، وعن كلّ مسألة يُمكنُ البحثُ فيها.

نشأةُ الفلسفة وتطوُّرُها:

كانت الفلسفة منذ كان العقلُ البشريُّ، ونشأت الفلسفة منذ فَتَحَ الإنسانُ عينيه على الوجود، ومنذ فاهَ العقلُ بـ: ((اللّماذا؟)) الكبرى.

وقد بدأت الفلسفة فطريّةً ساذَجةً، تَستندُ إلى الحسِّ والظَّاهر القريب، ثم بدأت تُحكِّم العقلَ والمنطقَ.

وإنّ كلَّ إنسان يُمكن أن يتفلسف إذا نظر وتأمَّل في الأشياء وتَعلُّقها، ويُمكن أن يتفلسف أيضاً كلُّ مَن كانت مهنتُه وهدفُهُ وأغراضُهُ ـ البحثَ عن الحقيقة والمعرفة.

فالفلسفة: هي حبُّ الحكمة في كلّ صُوَرها، وإجادةُ التعبير مع إصابة التّفكير.

وغايتُها: حبُّ الاستطلاع؛ إذ إنّها لا تَتوخّى أيَّ فائدةٍ ماديّة، أو غايةٍ عملية.

وقد قال «إخوان الصّفا»: ((الفلسفة: أوّلُها: مَحبّةُ العلوم، وأوسطُها: معرفةُ الحقائق والموجودات، وآخرُها: القولُ والعلم، والعملُ بما يُوافق العلمَ)).

فالفلسفة: علمٌ نتعرّف به الوجود، ونَستخلصُ من معرفتنا خُطّةً نسيرُ عليها نحوَ الهدف الأعلى.

أما العلم فهو: معرفةُ الكائن بما هو كائنٌ، والوصولُ إلى المبادئ الأولى والغايات الأخيرة.

وأما الخُطّة فهي: السُّلوكُ الذي يؤدّي بنا إلى تحقيق إنسانيَّتنا وبلوغِ الكمال.

وأما الهدف فهو: السعادةُ النّاتجةُ عن هذا الكمال.

البواعثُ والأسبابُ التي تَدفعُ الإنسانَ إلى الفلسفة:

1 ـ الدَّهشة والتعجّب:

قال «أرسطو»: ((إنَّ الدَّهشةَ هي أوّلُ باعث على الفلسفة؛ فالإنسان يتساءل: لماذا وُجدنا . . ؟ ومن أين . . ؟ وإلى أين . . ؟ وقد وَجدَ العالَم أمامَه كأنَّه لُغزٌ فحاول حَلّ هذا اللُّغز. إن هذه المحاولةَ هي الفلسفةُ)).

2 ـ المنفعة:

إنَّ أوّل ما حملَ الإنسانَ على التفكير في هذا العالم، وحلِّ لُغزه هو ما يرجوه من منفعة لذلك.

قيل: إنَّ المصريين وضعوا أساسَ علم الهندسة لحاجتهم إلى معرفة فَيَضان «النِّيل»، وتحديد الأراضي. وكان الكَلْدانيُّون يَتأمَّلون في النُّجوم ليَهتدوا بها في ظُلُمات اللَّيل. وبقيَ العقلُ الإنساني يُتلمَّس السبيلَ للوصول إلى فَهْم العالَم وفَهْم الحياة فَهْماً واضحاً صادقاً ويحلّ ألغازَه، وقد تَنوَّعت أمامه السُّبلُ والوسائلُ والمسائلُ: من أرض ذات فجاج، إلى سماء ذات أبراجٍ زُيِّنت بالنُّجوم للنَّاظرين، فأصبح الإنسانُ يطلبُ المعرفةَ للمعرفة لا للفائدة العمليَّة؛ وذلكَ لأنَّه مَفطورٌ على حُبّ الاستطلاع. وهذا الدّافع يَقوى بنُمُوّ العقل، ويحملُ الإنسانَ على البحث في عِلل الأشياء، وعلاقةِ بعضها ببعض، وهذا ما دعا الإنسانَ أن يَتفلسَف.

3 ـ الشّكّ:

لقد أدرك الإنسانُ أنه يجهلُ الأشياءَ فشكَّ بها. فراح ينظر ويُفكّر ويتأمّلُ في هذه الأشياء حتّى وجد ضالّتَه المنشودةَ.

فالفلسفة: شوقٌ وُجدَ وراءَ المعرفة لعلل الأشياء الخفيَّة، ومعرفة الحقيقة. وقد قال «فيثاغورس»: ((إنّ الفيلسوف هو المحبُّ للحكمة. ويكفي الإنسانَ شرفاً أنْ يُهدِيَ الحكمةَ ويَجدّ في طلبها ليصلَ إلى الحقيقة)).

موضوعات الفلسفة:

لقد أحدث «سقراط» ثورةً في نطاق الفلسفة، وانصرف عن دراسة الطبيعة إلى دراسة الإنسان والأخلاق والعقل والسياسة. لقد أنزل الفلسفةَ من السماء إلى الأرض؛ فالفلسفة مَدينةٌ لـ«سقراط» إلى يومنا هذا.

قال «سقراط»: ((أيُّها الإنسان، اعرِف نفسَك)). وقد حدَّد الفلسفةَ بقوله هذا في أقسامها التقليدية المُتَّبعة حتى اليوم.

إنَّ معرفة النفس: تفرض معرفةَ قواها ومُيولها ونَزَعاتها، وهذا هو موضوعُ علم النفس.

إنَّ معرفة النفس: تفرض معرفةَ جَوهرِها وأصلِها وطبيعتِها وحقيقتِها، وهذا هو موضوعُ علمِ ما بعدَ الطبيعة.

إنَّ معرفة النفس: تفرض معرفةَ القوانين المنطقيّةِ للعلم الصَّحيح، وهذا هو موضوعُ علمِ المَنْطق.

إنَّ معرفة النفس: تفرض معرفةَ طُرُق سُلُوكها وفْقاً لطبيعتها الخاصَّة، وهذا هو موضوعُ علمِ الأخلاق.

فالموضوعات الفلسفيّةُ هي:

1 ـ ما بعد الطبيعة: أي ما وراء المادّة، أي: الله الخالقُ لكلّ شيءٍ وهو علّةُ العلل.

2 ـ الفلسفة الطبيعية: أي العالَم وما فيه من مظاهرَ متنوّعة.

3 ـ الإنسان: ويشمل: علمَ النفس، أي: الحياة العقلية والسيكولوجية.

4ـ علم المنطق: وهو العلم الذي يَبحثُ في الطُّرُق التي يَتَّبِعُها العقلُ في الوصول إلى المعرفة.

5ـ علم الجمال: غايتُهُ تَرقيةُ فكرة الجمال.

6ـ علم الأخلاق: ويبحث في الخير، وما ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

7ـ علم الاجتماع: ويبحث في الظواهر الاجتماعية، والإنسانِ؛ من حيثُ علاقتُهُ بالمجتمع.

8ـ فلسفة التاريخ.

9ـ فلسفة القانون.

الفلسفة وسائرُ العلوم:

إنَّ الفلسفة هي محاولةٌ لفهم الكون بكامله. لذلك شَمَلتْ الفلسفةُ جميعَ العلوم والمعارف والموضوعات. وهكذا تعدَّدت العلومُ وتفرَّعت، ما أدَّى إلى انفصالها واحداً تلوَ الآخر عن جذْع الفلسفة. فكانت الرِّياضيّاتُ، وعلمُ الفَلَك، وعلمُ الطَّبيعة، والأحياء، والعلومُ الإنسانيّةُ المختلفةُ: (التاريخ ـ النفس ـ الاجتماع).

تُرى هل تلاشت الفلسفةُ بانفصالها عن العلوم؟

الواقع أنّ العلوم الوضعيّةَ، مهما بلغت من التّقدُّم، لا تُشْفي غليلَ العقل البشريِّ: المُتعطِّش للمعرفة؛ لأنّها لا تُمكِّنُه من فَهْم العالَم وإدراكِ الخالق. فلا يزال إذن ثَمَّ مجالٌ للتفكير الفلسفيِّ.

و هكذا يبدو أن للفلسفة غايتين أساسيَّتين لا تستطيعُ تَحقيقَهُما رَغْم تقدُّمها. هاتان الغايتان هما:

1ـ غاية نظرية: تَهدُفُ إلى معرفة ما في الكون وتفسيره.

2ـ غاية عملية: تَهدُفُ إلى معرفة الخير، وتحديد السلوك الإنسانيِّ وفْقاً لمُقتَضَيات الخير.

فهدف الفلسفة لا يختلف عن هدف الدين، إلاَّ أنَّ الدين يَعترِف بالوحي، ويَرتكزُ على الإيمان. أما الفلسفةُ؛ فإنَّها تسعى إلى المعرفة عن طريق العقل.

الفلسفة القديمة الشرقيّة
وأثرها على الفلسفة اليونانيّة

إن الفكر الشرقيّ كان له تأثير كبيرٌ في الفكر الغربي، وقد بيّن المستشرق «ماسون أورسيل»: أنَّ الفكر الغربيَّ لم يكن في مرحلة من مراحل تاريخه مُنعزلاً عن سائر العالم. وقد انتقد «أورسيل» مفهومَ (الغرب)؛ إذ قال: ((الواقع أنَّ هناك حقيقةً واحدةً هي (أوراسيا)، أي: الأوربية ـ الآسيوية، هذه الحقيقةُ تُشكِّلُ أوربا طَرَفَها الغربيَّ، وتُكوِّنُ آسيا طَرَفَها الشرقيَّ. فتصبح الحضارة الغربية مُكوّنةً من عناصر هذه الحضارة حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط. في هذه البقعة وما جاورها، عاشت شعوب تَنطقُ بلغات متعدِّدة: ساميّة، وهندوأوربيّة، وبعضِ اللَّهجات الإفريقيّة. فالفكر المتوسّطيُّ نتيجةُ تفاعلَ هذه اللُّغات)).

ويقول «أورسيل» أيضاً: ((إنّ كلَّ الإمبراطوريّات السّاميّةَ؛ التي نشأت في بلاد الرّافدين، والعربَ في فلسطين، والمملكةَ المصريّةَ، كلَّها ـ أسهمت في تكوين الحضارة الأوربيّة؛ لأنَّ جميع طُرُق آسيا تؤدِّي إلى البحر المتوسط، بالإضافة إلى طريق «النيل» الكُبرى أيضاً)).

وأضاف قائلاً: ((إنَّ الفلسفة اليونانيّةَ تَظهر لنا واضحةً جليّة إذا دَرَسناها في البيئة الأوراسيّة. وإنَّ معرفة الحضارات: الأناضوليّة، والسوريّة، والمصريّة، والآشوريّة، والبابليّة، والفارسيّة، تُلقي أضواءً على المذاهب الفلسفيّة اليونانيّة)).

الفكرُ المصريُّ (الحضارةُ المصريةُ في وادي النيل):

إنَّ الحضارة المصريّةَ تُعتبر أقدمَ الحضارات البشرية. ففي الألف الخامس قبل الميلاد وجد المصريون أساساً للتوقيت، والمساحةَ للأراضي، وفي الألف الثاني قبل الميلاد كانت «طيبة» عاصمةَ العالَم، تَنشُرُ أضواءَ الحضارة المصرية في آسيا، وعندما أصبحت مصر تحت حكم الفرس والآشوريين والرومان واليونان والعرب، تَفاعلت كلُّ هذه الحضارات معها واندمجت في تُراثها، وتكوَّنت المدرسةُ الإسكندريةُ الشهيرة.

كانت مصر في نظر اليُونان الأُوَل بلدَ المعارف؛ يَؤمُّونها للعلم والاطّلاع. فأخذوا عنها الشّيءَ الكثيرَ، كـ: الهندسة؛ التي وُجدت أول ما وُجدت في مصر؛ وذلك لتخطيط الأراضي وبناء الأهرامات والهياكل. وأخذوا أيضاً: تقسيمَ السّنة إلى: 360 يومٍ وربع اليوم، وتقسيمَها إلى: 12 شهراً، وتقسيمَ الشّهر إلى أربعة أسابيع، والأسبوعِ إلى سبعة أيام.

وعَرفَ المصريون أيضاً كرويةَ الشّمس والقمر، وأنَّ النجوم من عنصر ناريٍّ.
وفسّروا الخُسوفَ والكُسوفَ، وأنَّ العالَم مُؤلَّفٌ من أربعة عناصر: (الماء ـ الهواء ـ التراب ـ النار). فقد أخذ اليونان كلَّ هذه المعلومات وجعلوها انطلاقَ تفكيرهم العلميِّ والفلسفيِّ.

أما في المعرفة النظرية، وخاصّة الدينية: فإنّ المصريين هم أوَّلُ مَن نَظَّمَ الآلهةَ، وحَدّد العلاقةَ بينها وبين البشر، وهم أوَّلُ مَن آمن بالحياة الأُخرى، وأوّلُ مَن أثبتَ قضيّةَ الثّواب والعقاب بعد الموت، وجعلوها رهنَ الطهارة الخُلُقيَّة والسُّلوك، وقد سبقوا بذلك اليهودَ.

وإنَّ أبرزَ ما في الديانة المصرية: خلودُ النّفس، وأنَّها مُغايرةٌ للجسد. فهم الذين وضعوا أُسسَ العقيدة الثنائيّة؛ التي تُرجعُ الكونَ وكلَّ ما فيه إلى عنصرين وجَوهَرين: ماديّ، وروحانيّ.
وهم أوَّلُ مَن أقام للكلمة وزناً، وجعلوا منها عنصراً خلاّقاً.
وهم أوَّلُ مَن أوجدَ أُصولَ الجَدَل، حتى إن جَدَليِّي اليُونان كانوا يأتون إلى كَهَنة المصريين ويتتلمذون عليهم.

وقد أثبتت الأبحاث العلمية: أنَّ الفلسفة اليونانيّةَ مَدينةٌ للفكر المصريِّ. لذلك يُمكن القولُ: إن مصرَ الفراعنة مُعلّمةُ الإنسانيّة، وإن إفريقيةَ السَّوداءَ ـ التي كان الناسُ يُعتبرونَها بدائيّةً هَمَجيّةً ـ هي التي حَملتْ آثاراً حضاريّةً وَصلتْ من مصرَ عن طريق الحبشة وليبيا وبلاد النُّوبة إلى اليونان.

حضارة بلاد الرافدين (سومر ـ بابل ـ آشور):

إنَّ الحضارة المصريّةَ كان لها أثرُها في الفكر الأوربيِّ اليُونانيّ. ولكنَّه بقي على تُخُوم تلك الحضارة. أمّا البُؤرةُ المركزيّةُ التي شَعَّ نورُها إلى الغرب فأضاء العالَمَ اليونانيّ والرّومانيّ

ووصل إلى الشّرق ، ويَعتبرها المؤرّخون مَهْدَ الإنسانية ، هي البُقعةُ المُنحصرةُ بين الرَّافدَين التي تُسمّى : بلادَ ما بين النَّهرَين .

تعود هذه الحضارة إلى العصر الحجريِّ ؛ فقد عَثرَ العلماءُ على آثار للحضارة السّومريّة اعتبروها رُكنَ الحضارات الآسيوية .

فالحضارة السّومريّة:

وليدةُ التُّراب والماء . فقد صَنَعت الأوانيَ الخزفيّةَ ، والآجُرَّ للنَّقش والكتابة ، وقالوا : بأنَّ الإنسان مجبولٌ من الماء والطين .

كانت بلادُ الرَّافدَين مُلتقى الشُّعوب المختلفة ؛ حيثُ هاجر إليها السّاميُّون ، واستقرّوا فيها بعد تَنقُّلات عديدة ، فأنشأوا فيها عِدّة دول ، منها : الدَّولة البابليَّة ـ والآشوريَّة .

دولة بابل:

مُؤسِّسُ هذه الدَّولة «حمورابي» ، وكانت بابلُ البَوتقةَ التي انصهرت فيها الحضاراتُ السّومرية والسّاميّةُ ، وكان لهم الفضلُ في إحلال اللُّغة السّاميّة مَحلَّ اللُّغة السّومرية ؛ فمَكّنت الفكرَ من الانطلاق . وقد أحلَّ «مردوك» : الإلهَ الواحدَ محلَّ الآلهة المتعددة . فحمل الفكرَ البشريَّ إلى فكرة التوحيد ، وهي فكرة سامية . وقد وضع «حمورابي» شرائعَ ما تزال أساساً يَرتكزُ عليه الفكرُ والوجدانُ البشريُّ .

دولة آشور:

وقد جاء الآشوريون ، ولكنهم لم يأتوا بشيء جديد في مجال الفكر ، لكنَّ علاقتهم بالسُّوريِّين والمصريِّين واليونان مكّنتهم من حمل الحضارة البابليةِ إلى الشعوب الأخرى ونَشرها .

وقد كان للفكر الإيرانيِّ الفارسيِّ ، والهنديِّ ، والصِّينيِّ ، أثرٌ كبيرٌ على الفكر اليونانيِّ .

وعندما خرج الإسلام من الجزيرة العربية ، واعتنقته شعوبٌ فارسيّة ، وسوريةٌ ، ومصريةٌ ؛ لها تراثُها الفكريُّ ، ومُعتقداتُها الدينيةُ ـ لم تَتخَلَّ هذه الشعوبُ عن حضارتها ؛ فأدخلت في الإسلامَ ـ من حيثُ تَدري أو لا تَدري ـ عناصرَ غريبةً عن الإسلام ، ظهرَ أثرُها العميقُ في الفِرَقِ المختلفة ، وعند المتصوّفين والفلاسفة .

وعندما انتقلت الحضارةُ الإغريقيةُ اليونانيّةُ من الشرق إلى الغرب بتأثير الحضارة الإسلامية، كان للعرب الفضلُ الأكبرُ في اطّلاع أوربا على الفكر اليونانيِّ الممزوجِ بالفكر الإسلاميِّ والفكرِ الشرقيِّ؛ لأنَّ الفلاسفة اليونان، مثل: «أفلاطون» و«أرسطو» و«أفلوطين»، وصلوا إلى الغرب عن طريق: «الفارابي»، و«ابن سينا»، و«ابن رُشْد»، و«الغزالي»، قبل أن يصلوا عن طريق المُفكِّرين البيزنطيِّين، الذين انتقلوا إلى غرب أوربا بعد فتح القسطنطينية عام 1453م.

obeikandl.com

الفلسفة اليونانية

كانت بلادُ اليونان موطنَ الانفتاح في قلب البحر المتوسط ما بين آسيا وأوربا وإفريقية.

وفي بلاد اليونان نشأ الشعبُ اليونانيُّ وفيه ميلٌ إلى الجمال، والفنِّ، وتَوْقٌ إلى المعرفة.

وعندما سكنت الغَزَواتُ اتسعتْ شواطئُ آسيا الصُّغرى لتبادلِ العلاقات بين شعوب آسيا العريقةِ في القِدَم، وبين اليونان.

وقد نشأت ثقافةٌ يونانيةٌ مَزيجٌ من: الثقافة المصرية، والثقافة البابلية، والفينيقية، والفارسية. وهكذا تَغذّى العقلُ اليونانيُّ من عُصارة عقول الشُّعوبِ وحضاراتِها وثقافاتِها.

ولا شك أنَّ الثقافة القديمةَ؛ التي تُمثِّلُها اليونان، مؤلَّفةٌ من عناصرَ دينيَّة وعلميَّة وفنيَّة تَختلطُ فيها الخُرافاتُ والأساطيرُ بالحقائق التّاريخيَّة. ولكنَّ مفكِّري اليونان غَرْبلوا، ومَحَّصوا، واختاروا، ثمَّ قابلوا وقارنوا بين مُختلف الشُّعوب؛ مُحكِّمين عُقولَهم، حتى توصَّلوا إلى الصَّواب. فكان لهم: علمُ المَنطقِ: الذي كان أصلَ الفلسفةِ، وأصلَ الطَّريق في التَّنقيب، وجعلوا للعقل المقامَ الأوّلَ في العلم والعمل.

وقد كان أسلوبهم العقلي الجديد وطريق الشرقيين الصوفية، القطبين اللذين نمت بينهما وتطورت الحضارة اليونانية في أوجها في القرن الخامس ق.م.

فالفكر اليونانيُّ ـ كما يبدو لنا في فجر تاريخه ـ ليس فكراً بدائياً؛ لأنَّ وراءَهُ ماضياً حافلاً لا نزال نَجهلُهُ.

أقسام الفلسفة اليونانية

1 ـ من «طاليس» إلى «سقراط»، من: (7 ـ 5 ق.م):

كانت الفلسفةُ والحكماءُ يَهتمُّون بمعرفة العالَم، ونَشأته وتكوينه، وعناصره، أي: فلسفةٌ كونيةٌ (التوجيه الكوسمولوجي).

2 ـ «سقراط» ـ «أفلاطون» ـ «أرسطو»، من: (5 ـ 4 ق.م):

كان الفلاسفةُ يهتمُّون بدراسة الإنسان، ومعرفة طبيعته، ومُيُوله، وسُلُوكه، مع بعض

النَّظَرات الماورائيَّة (الميتافيزيقيَّة)، أي: إنَّ الفلسفةَ كانت فلسفةً إنسانيةً، والتوجيهَ توجيهٌ طبيعيٌّ سيكولوجي.

3ـ من وفاة «أرسطو» إلى نشأة الأفلاطونية الحديثة: من (4ق.م ـ 3م):

كانت الفلسفة فلسفةً أخلاقيةً. توجيهٌ خُلُقيٌّ أدبيٌّ.

4ـ الأفلاطونية الحديثة: من (3 ـ 6م):

الفلسفةُ هي: فلسفةٌ دينيةٌ، والتوجيهُ دينيٌّ صُوفيٌّ.

obeikandl.com

الفلسفة اليونانية قبل سقراط
(فجر الفكر اليوناني)

قال «برتراند رسّل»: ((لن تجدَ في التاريخ كلِّه ما يُثيرُ الدَّهشةَ، أو ما يَتعذَّر تعليلُهُ، أكثرَ ممَّا يُدهشُك ويتعذَّرُ عليك تعليلُ الظهورُ المفاجيء للمدنيَّة اليونانية)).

وفي الواقع يرى مؤرِّخو الفلسفة، أنَّ الفلسفة اليونانيةَ بدأت مع «طاليس»، وبلغت خلال قرنَين من الزمن، ذِرْوةً لم تَتعدَّها بعد ذلك.

لكنَّ العلم الحديثَ يَنفي التكوُّنَ العَفويَّ، ويعتقد أنَّ التطوُّرَ هو القانونُ العامُّ لكل ما هو حيٌّ. والفكر كالحيوان، وكالنبات؛ كائنٌ حيٌّ، ينمو ويتطوَّر، وما يبدو لنا منه بدايةً مُفاجئةً ليس إلاَّ نقطةَ وصول لجهد مُستمرٍّ، بلغ مرحلةً ما من مراحل تطوُّره، وأصبحت هذه المرحلةُ نقطةَ انطلاق جديدة نحو آفاق جديدة، تحت تأثير عواملَ مختلفة من: تاريخية، وجغرافية، واقتصادية، واجتماعية وغيرها.

وما نُسمِّيه بالمدنيّة اليونانية ليس إلاَّ حاصلاً لمدنيّات قديمة، من كريتيّه ومسّينيّة وأخائيّة ودوريّة، تعاقبت على بلاد اليونان، واستقرَّت فيها، ومدّت سيطرَتَها على الأقطار المجاورة، وامتزجت ـ عن طريق البحر والبرِّ ـ بمَدنيَّات أخرى، استفادت منها في حقول مختلفة، ولا سيما في حقل الكتابة؛ حيثُ أخذ اليونان عن الفينيقيين أحرُفَ الهجاء الساكنة، وأضافوا إليها الأحرفَ المتحركةَ، فكَيَّفُوها بحيثُ أصبحت أداةً مَرِنةً للتعبير عن الفكر وانطلاقه، فساعد على تَقدُّم المدنيَّة اليونانية تَقدُّماً سريعاً.

فما يُسمِّيه المؤرِّخون بـ: (المعجزة اليونانية) ليس معجزةً بكلِّ معنى الكلمة، لكنَّ عبقريتهم النادرةَ عرفت كيف تُوحِّدُ بين العناصر المختلفة المُتباينَة، وتَسبكُها في مذاهبَ فلسفية؛ كان لها الفضلُ الأوّلُ في توجيه الفكر الإنسانيِّ نحو ما آل إليه في حضارتنا حتى اليوم.

ولعلَّ فضل أقدم مُفكِّري اليونان؛ الذين حَفظَ لنا التاريخُ أسماءَهم، أو تُفاً من مؤلَّفاتهم، كان فيما نبذوه من الميثُولوجيَّات القديمة، والأساطير، والخُرافات، أكثرَ ممَّا بَرزَ

فيما تركوه لنا من مُبتَكَرات أدْمغتهم. فالفكر اليونانيُّ كان في أوَّل نَشأته، فكراً دينياً خُرافيّاً، يُحاولُ تفسيرَ الوجود عن طَريق الآلهة.

فـ: (إلياذة هوميروس)، وهي تُعَدُّ اليومَ عملاً جَماعياً، تَمّ تأليفُها بين القرنَين: التاسع والثامن، تُرينا الآلهةَ تتدخَّلُ في كلِّ عملٍ من أعمال البشر، لكنها تضعُ فوق كلِّ شيء قَدَراً يُسيِّرُ الكونَ، ويَخضعُ له البشرُ والآلهةُ، وقد يكون مصدراً من المصادر التي استمدَّ منها العلمُ اعتقادَه بقوانين الطبيعة.

ويبدو لنا (هزيود) مُحاولاً تنظيمَ الكون تحت تأثير فكرٍ انتقاديٍّ ما يزال مُتلثِّماً، لكنه يُخضِعُ أطوارَ البشرية الخمسة لقَدَرٍ محتومٍ، ويُحاولُ فَهْمَ نظامٍ يسيرُ عليه الكونُ.

وتزدهرُ الأسرارُ، أسرارُ (إلوزيس)، و(ديونيزيوس) وغيرُها، وتَبرُزُ الأسرارُ (الأورفيّة)؛ فتُعيرُ الأخلاقَ انتباهاً خاصّاً، وتسعى إلى تمكين الإنسان من الاتحاد بالله بواسطة التطهير، وتقول بالتناسُخ. ولعلَّها أخذت هذه الفكرةَ عن المصريِّين، كما يَعتقدُ «هيرودوطس»، أو استَقَتْها من الفكر الهنديِّ عن طريق الفُرْس؛ الذين كانوا على اتصالٍ مُستمرٍّ بالمدن الإيونية.

قال «برترندرسّل»: ((والمذهبُ الأوْرفيُّ مذهبٌ زُهديٌّ. فالخَمْرة عند الأورفيين مُجرَّدُ رمزٍ، كما ستكون رمزاً في الديانة المسيحية، والسُّكْرُ الذي كان الأُوْرفيُّون يَنشُدونَه هو حالةُ الوجد، أي: حالة الاتحاد مع الله. وهم يَعتقدون: أنَّهم بهذه الطريقة يَحصُلون على ضربٍ من المعرفة الصوفية، التي لا يُمكنُ الحصولُ عليها بالوسائل المألوفة. وقد تَسلَّل هذا العنصرُ الصوفيُّ إلى الفلسفة اليونانية على أيدي «فيثاغورس»: الذي كان مُصلحاً للمذهب الأُوْرفِّي، كما كان «أُوْرفيوس» مُصلحاً للمذهب الدِّيُونيسي، ثم انتقلت الأُوْرفيَّةُ من «فيثاغورس» إلى «أفلاطون»، ومن «أفلاطون» انتقلت إلى معظم الفلسفات التي جاءت بعدئذٍ فكان فيها عنصرٌ دينيٌّ، قَلَّ أو كَثُر)).

النَّزعةُ العقليةُ وبَدء التفكير الفلسفيِّ

ومهما يكُنْ من أمر؛ فإنَّ النزعة الصُّوفيةَ هي إحدى النَّزعتَين اللَّتين تتجاذبان الفكرَ الإنسانيَّ.

أمَّا النزعةُ الثانيةُ فهي النزعةُ العقليةُ؛ التي تبدأ بالشكِّ، وتَلجأُ إلى النقد، فتَشقُّ الطريقَ إلى الفلسفة، التي لا تَتميَّز ـ في أوَّل نشأتها ـ عن الدين، فتَمتزِجُ فيه حيْناً، وتسيرُ معه جَنْباً إلى جنب حيْناً آخرَ حتى تَتوصَّلَ، بعد بلوغها درجةً مُعيّنةً من التطوّر، إلى الانفصال عنه، والاستقلالِ بموضوعاتها الخاصَّة.

لكن من خصائص الفكر البدائيِّ: أن يكون واثقاً بذاته، وأن يَعتبرَ حقيقةَ ما يبدو له أنَّه الحقيقةُ، دون أن يَعرِضَه على مَحكِّ النَّقْد.

قال «إندره كريسُّون»: «في العالَم ضربان من العقول: عقولٌ تُعيرُ الظَّاهرات الحسيَّةَ اهتماماً خاصّاً؛ فتلجأ إلى الملاحظة والاختبار، وعُقولٌ لا تأبه إلاَّ لحقائقَ بديهيّة واضحة لا تحتاج إلى بُرهان؛ فتعود إليها في إثبات الحقائق، مُعرِضةً عن الواقع، غيرَ مُبالِيَةٍ بمُعطَياتِ الحواسِّ».

ونحن نجدُ عند أوَّل مُفكِّري اليونان هذَين الضَّربَين من العقول، يُنشئان مدارسَ تُعتبرُ نُقطَ انطلاقٍ للفكر اليونانيِّ، هي: المدرسةُ الإيونية، والمدرسة الفيثاغوريَّة، والمدرسة الإيليَّة، والسفسطائيون.

1 ـ المدرسة الإيونية

((فلسفة تجريبية))

يُسمِّي «أرسطو» أصحابَ هذه المدرسة بـ: (الطبيعيّين)؛ لأنَّهم حاولوا تفسيرَ الظاهرات في البيئة التي كانوا يعيشون فيها، وإرجاعَ تلك الظاهرات المختلفة إلى مبدأ واحد. وفي هذه المحاولة تَنحصرُ الفلسفة كلُّها.

لاحظ هؤلاء المُفكِّرون أنَّ: (الرياضيات، والأفلاكَ، والظاهرات الطبيعية)، تَخضعُ لنظام ثابت، وتَسيرُ وفقاً لقوانينَ دقيقة، وأنَّ كلَّ ذلك لا يمكن أن يكون نتيجةً للمُصادفة، وأنَّ وراءَه علَّةً يستطيع العقلُ الإنساني أنْ يُدركَها، ولكن كيف يتصوَّر العقلُ هذه العلَّة..!؟

يظهر أنّ مَهْد العلوم اليونانية التي نشأت عن هذا التفكير كان في (ميليا)، وفيها بَرَزت أسماءٌ لم تحفظْ لنا أقدمُ التواريخ عن حياتهم إلاَّ معلومات ضئيلةً امتزجت فيها الحقيقةُ بالأُسطورة، ومن تلك الأسماء ثلاثةٌ نَبَغوا في (ميليا)، هم: «طاليس» و«أنكسيمندرس» و«أنكسيمنس»، وقد كتب هذان الأخيران بالنثر الإيّوني، أما الأول فلا نعرف له أثراً مكتوباً.

والمعلوماتُ المتوافرةُ لدينا عنهم تَنحصرُ فيما تَذكُرُه الأُسطورةُ، من أنّ: «أنكسميندرس» كان رفيقاً لـ«طاليس»، وأنّ: «أنكسيمنس» كان صديقاً له.

وقد تَمثَّلت النزعةُ التجريبيةُ الاختباريّةُ بأحلى مظاهرها عند هؤلاء المُفكِّرين الثلاثة، الذين ظهروا في القرن السادس قبل الميلاد، ثم جاء بعدَهم «ديوجينس»؛ الذي عاش في جزيرة (كريت) حوالي: المائة الخامسة ق.م، وتَبِعَه «هيرقليطس» الإفسسيُّ المتوفى عام: 470. وقد حاولوا جميعهم، بطُرق مختلفة، تفسيرَ العالَم الطبيعيِّ، والعالَم العقليِّ، والعالَم الخُلُقيِّ، ومَيَّزوا في الكون عناصرَ أربعةً هي: (النار، والماء، والهواء، والتراب) تُكوِّنُ مادةً أزليّةً، عنها نَشأ العالَمُ، ومن تَحوُّلاتها وامتزاجِ أجزائها كانت جميعُ الكائنات.

طاليس:

يبدو «طاليس» ـ وهو من أقدم من وصلت إلينا أسماؤُهُم من حُكماء اليونان ـ أوَّلَ مَن أعارَ البحثَ النظريَّ المُجرَّدَ اهتمامَهُ.

وقد لَمَعَ في النصف الثّاني من القرن السادس ق.م. ويُقال: إنّه ارتحل إلى مصرَ، وعنها أخذَ علمَ الهندسة؛ الذي جاء به إلى اليونان. ونحن نعلم أنَّ علم الهندسة في مصرَ لم يكن يَتعدَّى بعضَ المعلوماتِ العمليةِ حول مساحة الأراضي، وأنَّ طاليس هو الذي جعل منه علماً نظرياً.

وقد تخيّل «طاليس» أيضاً نظاماً للكون كان له، مع سذاجته، الأثرَ العميقَ في تطوُّر الفكر البشريِّ، نستطيع أن نَعرِضَه، مُستندين إلى ما وصل إلينا من النصوص المتأخرة، على الوجه التالي:

يَحدُّ الفضاءُ المحيطُ بالكون كرةً صلبةً، ذاتَ ثُقوب ليس وراءَها إلاَّ المادةُ الناريةُ، وقد ملأ ماءُ البحر نصفَ الكرة السفليَّ، وانتشر الهواءُ والغَمامُ في نصفها العلويِّ؛ فكانت الأرض على الماء، وهي أشبهُ ما تكون بأسطوانة يبلغ عرضها ثلاثةَ أضعاف سمكها.

وزعم «طاليس»: أنَّ الحياة تكوَّنت في الماء، وأنَّ الماء هو العنصرُ الأساسيُّ الذي نشأت عنه العناصرُ الأخرى.

وشَاهدُهُ على ذلك: أنَّ الماء قابلٌ للتغيُّر، ولاتِّخاذ جميعِ الأشكال.

ويقولَ «أرسطو»: إنَّ هذا الاعتقادَ نشأ عند «طاليس» من أثر المطر في تنمية النبات، ومن رطوبة المادة التناسلية في الحيوان، ورطوبة الجثث عند انحلالها.

أنكسيمندرس:

لم يترك لنا «طاليس» أثراً مكتوباً، ولكنَّ «أنكسيمندرس» - وهو من تلامذته - ألّفَ كتاباً أطلق عليه المُتأخِّرون اسمَ: «الطبيعة»، أو«في تَكوُّن الأشياء»، لم يَصِل إلينا منه سوى نُتَفٍ مشكوكٍ في صحَّةِ نسبَتِها.

وقد أنكر «أنكسيمندرس» أن يكون الماءُ أصلاً للكون، وذهب إلى أنّ أصل كلِّ شيء: مادّةٌ لا شكلَ لها، ولا حَدَّ، ولا نهايةَ، وهي مَزيجٌ غيرُ مُحَصَّلٍ من العناصر كلِّها، يحتوي على العوالم كلّها. وقد خرجت جميعُ الكائنات من هذا العنصر غيرِ المُتناهي عن طريق «الانفصال»؛ فانفصل الحارُّ عن البارد، والرَّطْبُ عن اليابس، وانفصل بعض العناصر الأربعة عن بعضها الآخر.

غير أنَّ «أنكسيمندرس» أقرَّ مع «طاليس» أنَّ البحر هو الأُمُّ المُغذِّيةُ لكلِّ ذي حياة؛ منها خرجت هيولاتٌ غريبةُ الشكل، وتفتحت تحت أشعة الشمس عن أوَّل كائنٍ بشريٍّ.

وكان لـ«أنكسيمندرس» ضُروبٌ من الحَدْس العبقريِّ؛ فقال: بتعدُّد العوالم، وبأنَّ عالَمَنا هذا ليس سوى واحد منها، كما قال: إنَّ الحياة نشأت في الماء، وتطوَّرت من شكلٍ إلى شكلٍ حتى بلغت الأشكالَ التي نَعرِفُها، وتلك آراءٌ ليست بغريبة عن العلم الحديث.

وثَمَّةَ آراءٌ أخرى مَثّلت دَوراً مُهماً في تاريخ الفكر البشريِّ. فقد تصوّر فيلسوفُنا وراءَ الكرة المحيطة بالعالَم المُتطوِّر كُرات أخرى، تَشملُ كلٌّ واحدة منها عالَماً شبيهاً بعالَمنا، يَلفُظُها الفضاءُ اللاَّمتناهي من أحشائه، ثم تتلاشى فيه بعد مدّة محدودة من الزمن لتعود إلى الظهور.

وقد رسم «أنكسيمندرس» أوّلَ مصوَّر جُغرافيٍّ، واكتشف انحناءَ سطح الأرض، مُؤكِّداً أنَّها سابحةٌ في الهواء لا عائمة على سطح الماء، ولا مُرتكزةٌ على قاعدة صلبة. فنرى العقل مع «أنكسيمندرس» يُحاول الانطلاقَ نحو اكتشاف الحقيقة، لكنَّه يظلُّ مستنداً إلى الواقع، مُستمداً من الملاحظة مادّةَ أبحاثه، فيأتي بمزيج مُتّزِن من المعرفة النظرية والاختبارِ الحِسِّيّ.

أنكسيمنس:

لم يبلغ «أنكسيمنس» ـ الذي ظهر قبل عام 494 ق. م ـ عُمْقَ «أنكسيمندرس» في التفكير الفلسفيِّ؛ لأنَّ عالَمه في تركيبه العامِّ ونظامه الأساسيِّ لا يختلف كثيراً عن عالَم سَلَفه، هو: مجموعةٌ لا تُحصى من الكُرات الصلبة السابحة في الفضاء، غيرَ أنَّ هذا الفضاء هو الهواءُ والغمامُ، تتنفَّسُ فيه العوالمُ كما تتنفسُ الكائناتُ الحيّةُ. فالهواء إذن هو العنصرُ الأساسيُّ للكائنات؛ لأنَّه أكثرُ قابليةً من الماء للتغيُّر واتخاذِ الأشكال المختلفة.

وقد عُنِيَ «أنكسيمنس» عنايةً خاصةً بوصف الظاهرات الطبيعية وتعليلها؛ فقال: إنَّ نار الشمس تشعُّ إشعاعاً قوياً، فتمتصُّ حرارتَها الأبخرةُ المتصاعدة من البحر، وتُكوِّنُ فوق سطح الأرض طبقةً كثيفةً من الغَمام، وتصلُ إلى نيران السماء، فتُغذِّيها كما يُغذِّي الزّيتُ نارَ الحطب.

يحدثُ أحياناً أن تنفلتَ شُهُبٌ من النار فتُحرقَها وتُحدثَ ما نُسمِّيه بَرْقاً. وإذا ما تلاشى فعلُ النار بَرَدَ الغَمامُ، وتَساقطَ أمطاراً ترْوي سطحَ الأرض وتُغذّي البحارَ. وتَحفرُ هذه المياهُ في الأرض أنفاقاً ثم تَتفجَّرُ منها ينابيع وأنهار. وتحصل في الهواء تياراتٌ قويّةٌ تحت تأثير البرد وحرارة الشمس، تَجُوب الفضاءَ الذي يَفصلُ بين السماء والأرض، والمحرّكان لهذه التيارات هما الحرارة والبرد. نرى هنا أوّلَ محاولةَ جدّية لتفسير الآثار العلوية وتعليلها، ووضعِ الخطوط الرئيسية لعلم لم يتغيرَّ فيه شيءٌ يُذكر حتى القرن السادسَ عشرَ.

وهكذا تبدو لنا قيمةُ المدرسة الإيونية؛ لا في حاصل ما أنتجته من معارفَ، بل فيما حاولته، وفي الأسئلة التي وضعتها وسَعَتْ إلى الإجابة عنها، وهي أُمورٌ جديرةٌ بالبحث، كانت باعثاً على التفتيش والتفكير لمن جاء بعدها.

هيرقليطس:

لم تُنجب إيونيا بعد الحكماء الثلاثة الذين ذكرناهم، مُفكّرين حَفظَ لنا التاريخُ مذاهبَهم.

وقد ظهر في (إفسس)، حوالي سنة 501 ق. م «هيرقليطس» وهو: مُفكّر لا نَعرفُ له سَلَفاً ولا خَلَفاً، جمع بين حدّة الملاحظة وعُمْق التفكير.

رأى «هيرقليطس» أنَّ التحوُّلَ والصيرورةَ الدائمةَ يُسيطران على الكون وما في الكون من حيوان ونبات وجماد، وأنَّ كل شيء يَسيلُ ويتغيَّر ويتبدَّل، وأنْ ليس في الوجود شيءٌ ثابتٌ. فنحن: لا نَتَنشَّقُ رائحةَ الوردة الواحدة مَرّتَين، ولا نَغتسلُ مرّتَين في النهر الواحد. ولَمّا كانت النارُ أخفَّ العناصر، وأسرَعَها حركةً، فقد جعل منها «هيرقليطس» العُنصرَ الأساسيَّ الذي تكوَّنت منه العناصرُ الأخرى. فالنار تَلتَهمُ كلَّ ما تَمَسُّه، وليس في الكون ما لا تَقوى على التهامه.

وبين النار والهواء والماء والتراب حركةٌ دوريةٌ متواصلةٌ لا تَعرفُ الراحةَ والسُّكون. فالترابُ يَنقلبُ ماءً، والماء يتبخَّر غَماماً ثم هواءً، والهواءُ يلتهب ويعودَ إلى النار . . . فالنار هي الحاكمُ الأسمى؛ الذي يخضعُ لحُكمه كلُّ شيء. هي زفس الإله الأكبر الخالد وحدَهُ، في حين يَفْنى غيرُهُ من الآلهة، الواحدُ تلوَ الآخر.

والنار في كلِّ آن وكل مكان، هي الينبوعُ الأوحدُ للحياة، تَنحتُ الكائنات الحيّةَ من الداخل، أي: من القلب؛ حيثُ مقرُّها، وهي العامل المحرّكُ للعضلات والأعضاء، وما

النفس ـ مبدأ الحياة ـ إلاَّ قَبَسٌ من النار الأزلية، تَقوى فيها الحياةُ بقدْرِ ما تكون طبيعتُها حارّةً، وتَضعُفُ عندما تَخمُدُ نارُها، وتموتُ إذا ما تحوَّلت هذه النار ماءً.

وفي النار قوةٌ دائمةُ النشاط، وتوتُّرٌ يَنتُجُ عنه عِراكٌ مستمرٌّ يُعطينا مشهدُ الحياة الصاخبة صورةً عنه. وكلُّ كائن وليدُ عِراك بين قوَّتين متناقضتَين، لا تَتحدّان برهةً حتى تعودا إلى التنافر؛ فالوجود كفاحٌ. فلا بدَ أنَّ نعلم أنَّ الحرب مشتركةٌ بين الجَميع، وأنَّ الكفاح عدلٌ، وأنَّ كلَّ شيء يُوجد ويَفنى بالكفاح.

فمذهبُ امتزاج الأضداد جزءٌ من فلسفة «هيرقليطس» لا يَقلُّ أهميةً عن مذهب التغير الدائم. قال: ((أزواج الأشياء هي: أشياءُ كاملةٌ، وأُخرى غيرُ كاملة. هي ما يَنجذبُ بعضُهُ إلى بعض، وما ينفصلُ بعضُهُ عن بعض، هي المُتناغِم والناشزُ.

إنَّ الواحد متألّف من كلِّ الأشياء، وكلُّ الأشياء صادرةٌ عن الواحد. أين الثبات؟ وأين الحقيقة الأبدية التي يمكن أن تكون وحدها موضوعاً للعلم.. !!؟))

إنَّ الشيء الوحيدَ الأزليَّ في رأي «هيرقليطس» هو النارُ التي لا تخبو أبداً:

((كان أبداً ولا يزال ولن يزالَ إلى الأبد، ناراً لا تَخبُو فيها الحياة)).

والتغيرّ الدائمُ ذاتُهُ يَحدثُ وِفاقاً لنظامٍ يُسمِّيه «هيرقليطس»: (ناموسَ الكون)، وكلُّ ما نراه في هذه الدنيا خاضعٌ لمجموعة من هذه النواميس؛ التي يُطلقُ عليها «هيرقليطس» اسمَ: (القانون) أو(الاتفاق) أو(الكلمة)، لا يَتبيَّنُها ويتوصَّلُ إلى التعبير عنها إلا الحكيمُ المتمرِّسُ على ملاحظة الظاهرات.

2 ـ المدرسة الفيثاغورية
(فلسفة عقلية ـ صُوفيَّة)

عاش حكماء ميليا الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم كما عاش «هيرقليطس» في القسم الغربي من آسيا الصغرى، في مدن تجارية مزدهرة، لكنها كانت كغيرها من المدن الإيونية، مركزاً للاضطرابات، والقلق السياسيِّ، والاجتماعيِّ.

وكانت في القرن السادس تَرْزَحُ تحت نيْرِ الفُرْس؛ فثارت عليهم، لكنَّ ثورتَها أُخمِدت في الدماء والدمار، ولم يَعدْ فيها للفكر مَرْتَعٌ.

وقد ظهرت، في العصر ذاته، بُؤَرٌ أخرى للفكر الإغريقيِّ أشعَّتْ في المدن اليونانية القائمة في جنوبي إيطاليا.

لم تقم المدرسة الإيونية وحدَها بمحاولات لتفسير الكون، وتعليلِ ظاهراته، بل كانت ثَمَّ محاولاتٌ أخرى اتخذت طُرُقاً للبحث مختلفةً، واتَّبعت أساليبَ غيرَ التي اتبعتها المدرسةُ الإيونية.

وتنحصر أهم هذه المحاولات في مذهبين رئيسيين هما: المذهب الفيثاغوري، والمذهب الأيليوي.

ولئن نزع الإيونيُّون النزعةَ التجريبيةَ الاختباريةَ، وظلَّ الفيثاغوريون يتطلّعون إلى الطبيعة، ويَستمدُّون منها بعضَ الأُسُس لفلسفتهم العددية، فإنَّ المدرسة الإيليّة لم تُعرْ الطبيعةَ أدنى اهتمامٍ، وقد حاولت بناءَ صرح الفلسفة على الفكر المجرَّد، والبراهينِ المبنيةِ على مُعطَيات العقل النظريِّ.

فيثاغورس والفيثاغورية

لا نعرف عن «فيثاغورس» إلاَّ ما حاكته لنا الأساطير العديدةُ المتناقضةُ، التي نشأت حول اسمه منذ زمان عريق في القدَم، وقد شكَّ الكثيرون حتى في حقيقة وجوده. وكلُّ ما نعرفه بالتأكيد أنَّ ثَمَّ تقليداً فيثاغورياً قد اتّخذ شكلَهُ النهائيَّ قبل عهد «أرسطو»، وهو ينحصر في: ((أنّ العدد هو عنصرُ جميع الكائنات)).

يروي بعضهم: أنَّ «فيثاغورس» فينيقيُّ الأصل، وأنَّه وُلد في مدينة صور. غير أنَّ أكثر الروايات تجعلُ مولدَهُ في (ساموس)، وهي: جزيرةٌ مقابلةٌ للشاطئ الممتدِّ بين مدينتَي (مليطا) و(إفسس)، وأنَّه هجر وطنَه في عهد الطاغية «بوليقراطس» ملك الجزيرة حوالي عام 532 ق.م، واستوطن جزيرةَ صقلِّية. فحلّ في مدينة (كروتون)؛ حيث جمع حولَه رَهْطاً من التلامذة، كوَّنوا جماعات لها ميْزاتٌ خاصةٌ، منها: تحريم أكل اللحوم وبعض الحبوب، وتحريم تقدمة القرابين الحيوانية، والامتناعُ عن ارتداء الألبسة التي تدخل فيها موادٌّ من أصل حيوانيٍّ. وكلُّ هذا يعود إلى اعتقادهم بالتناسخ، أي: بانتقال الأنفس من جسم إلى جسم آخر.

ويبدو لنا «فيثاغورس» زعيمَ فئة دينية، وحركة سياسية، تَرمي إلى فرضِ سيطرة أتباعِها، ومؤسِّسُ مدرسة علمية جعلت من الرياضيات علْماً برهانياً قائماً بذاته.

ومن الثابت أنّ «فيثاغورس» وأتباعَه أنشأوا في (كروتون)، وفي غيرها من المدن الإيطالية، مؤسسات ذاتَ طابَعٍ خاصٍّ: دينيٍّ، وسياسيٍّ، وعلميٍّ. وقد حاولوا استلامَ زِمام الحُكْم ليُشيِّدُوه على أساس العقل والفضيلة.

ويمكننا بالاستناد إلى المعلومات المختلفة التي وصلت إلينا، أن نتصوَّر جماعةَ الفيثاغوريين على الشكل التالي: ((فئةٌ من الناس، يجمعهم نظامٌ مشتركٌ، وتربطهم أواصرُ صداقة متينة. وجمعيةُ علماء يشتغلون معاً بالرياضيات، والفلك، والموسيقى، والطب. وأخيراً: ملّةٌ سياسيةٌ، تسعى إلى جَعْل زمام الحُكْم بين أيدي العلماء، ولا تتراجعُ عن اللجوء إلى القوة عند الاقتضاء)).

وسنرى، عند دراستنا لإخوان الصفاء، الأثرَ العميقَ الذي تركته الفيثاغوريةُ عند هذه الجماعة. لم يَقتصر جُهْدُ أفراد الجماعات الفيثاغورية على إعداد العمل بواسطة التأمُّل والصلاة فحسب، بل عن طريق البحث العلميِّ المُرتكزِ على معرفة خصائص العدد أيضاً.

ونعلم أنَّ «فيثاغورس» قد ذهب إلى أنَّ الحقيقة الأساسيةَ، إنْ لم نقل: الوحيدةَ، هي العددُ؛ مبدأُ جميع الكائنات. والعدد ينشأ عن اتحاد مبدأين هما: الحدّ، أي الوحدة، واللاَّ محدود. ثمَّ أعدادٌ تختلف بالطبع، ويُمكن التعبيرُ عنها تعبيراً مكانياً، فنتصوّرها، ونَرسُمُها بشكل المثلَّثات، والسُّطوح المختلفة، والمجسمات.

والعدد فرد أو زوج. والفرد هو: المحدودُ الكامل، أمَّا الزوج، فهو: اللاَّمحدود الناقص.

والأعداد قابلة للتمثيل الهندسيِّ: فالنقطة (= ٠) تُمثِّلُ الوحدةَ.

والنُّقَط تَترتَّب على سطح مُنبسطٍ، أو في الفضاء، فتكون لنا الأعداد الخطيةُ، كالعدد 2: (⟷).

والأعداد المثلَّثة، كالعدد 3: (△).

والأعداد المربعة كالعدد 4: (□).

والأعداد الهرمية كالعدد 5: (⧄)، إلخ . . .

فيصبح العدد «واحد» العنصرَ الأولَ لجميع الأعداد، والمبدأ المفردَ للعدد «اثنين». و«الاثنان» أوّلَ عدد زوج، و«الثلاثة» أوّلَ مجموعٍ للزوج والفرد، و«الأربعة» الحاصلَ الأوّلَ لمضاعفة الزوج الأول . . . ، و«العشرة» مجموعُ الأعداد الأربعة الأولى . . . إلخ.

وأصبحت الأرقام تُعبِّر عن نسبة سرعة الحركة وبُطئها، وأصبحت العلاقةُ العدديةُ بين ارتفاع الصوت وطول الوتر معروفةً.

ولم يقتصر الفيثاغوريّون على كلِّ هذا، بل حاولوا تطبيقَ فلسفتهم العددية على الجماليات، والسياسة، والأخلاق، والتربية، ووجدوا علاقاتٍ خفيةً بين الأعداد العَشرة الأولى وجميعِ الكائناتِ الماديةِ والروحيةِ.

والأعداد، علاوةً على تمثيلاتها الهندسية، تَرمُزُ إلى حقائقَ ذهنية:

فـ «الثلاثة»: تُطابقُ المكانَ بأبعاده الثلاثة، فيما تُطابقُ «الخمسةُ»: الصفةَ، و«الستَّةُ»: الرُّطوبةَ، و«السبعةُ»: العقلَ والنورَ والصحةَ، و«الثمانيةُ»: الحُبَّ والصّداقةَ، و«التسعةُ»: الرّويَّة، أما «العشرةُ» ـ وهي التي تحتوي هذه الأعداد كلها ـ فإنها ذاتُ طبيعة إلهيةٍ، وتُطابقُ تركيبَ الكون الذي يحتوي على جميع الأشياء.

الصوفية في الفيثاغورية:

قال «كورنفورد» في كتابه: «من الدين إلى الفلسفة»: ((إنَّ مدرسة «فيثاغورس» تُمثِّلُ التيارَ الأساسيَّ في الاتجاه الصوفيِّ؛ الذي جعلناه أحدَ المجرَيَيْن الرئيسيين حين جعلنا الآخر اتجاهاً علمياً)).

ثم أضاف في موضع آخر: «تَميل المذاهبُ الفلسفيةُ التي أوحى بها «فيثاغورس» إلى البحث في العالَم الآخر؛ إذ تجعل القيمةَ كلَّها لوحدة الله تعالى، التي لا تراها العيون، وتَصفُ العالَمَ المحسوسَ بالبُطلان والخِداع؛ فهو سطح عكر، تَتكسَّر عليه أشعةُ الضوء السماويِّ، وتتسكَّع في ضباب وظلام».

من مُقوِّمات الصوفية:

الاعتقادُ بخُلُود الروح، وبوحدة الكائنات. وهذا ما علَّمه «فيثاغورس»، وأضاف أنَّ الروح تتحوَّلُ إلى أنواع مختلفة من الكائنات الحيَّة؛ فكلُّ ما يظهر في الكون ويتلاشى، يعودُ إلى الظهور في دورة معلومة [حَدَّدها بثلاثة آلاف سنة]، فلا جديد كلَّ الجِدَّة، وكلُّ ما يُولد وفيه حياةٌ ينبغي أن ننظر إليه نظرَتَنا إلى أبناء الأسرة الواحدة.

ويبدو لنا «فيثاغورس» مُفكِّراً، أعارَ الحَدْسَ الإشراقيَّ اهتماماً خاصّاً، واعتبرَهُ أعلى منزلة من الفكر، ومن الحسِّ، وهذا أيضاً هو موقفُ التصوُّف من المعرفة التي تكون بنوعٍ من النظر الوجدانيِّ، أكثرَ ممَّا تكون بالملاحظة والفكر والبرهان.

أمَّا النَّفس فقد اعتبرها «فيثاغورس» جَوْهراً مغايراً للجسد، مركزُهُ: الدِّماغ، وآلةً للوظائف العقلية العُليا من: حُكم، وتفكير. وبقاؤها بعد فناء الجسد يُمكِّنُها من الانتقال من جسد إلى جسد، ويتوقَّف عددُ الأجساد التي تَمرُّ بها على درجة كمالها.

لم تنقرض المدرسة الفيثاغورية بعد موت مؤسِّسها، بل ظلَّت نشيطةً في إيطاليا، وصِقِلِّية، ثم في مدن اليونان حتى عهد «أفلاطون»، و«أرسطو».

وهي وإنْ زالت من التاريخ كمدرسة قائمة بذاتها، فقد تركت فيه أثراً عميقاً، لم يتحرَّر منه الفكرُ الأفلاطونيِّ، ودَوَّتْ أصداؤها في الشرق قويّةً عند «إخوان الصفاء»؛ الذين نستطيعُ أن نُلقِّبهم بـ: فيثاغوريِّي الإسلام؛ لِمَا بينهم وبين الجماعات الفيثاغوريَّة من أوجه الشَّبه العديدة، كما سنرى ذلك عند دراستنا لمذهبهم.

3 ـ المدرسة الإيلية
(فلسفة عقليّة)

برمنيذس:

نشأ «برمنيذس» في (إيليا) ـ من أعمال إيطاليا ـ حوالي عام 405 ق. م.

وكلُّ ما نعرفه عنه: أنّه لعب دوراً سياسياً مُهمّاً، وكان ذا شخصية تَفرِضُ الاحترامَ.

وقد ألّف ديوانَ شعر في الطبيعة، وصل إلينا بعضُ أجزائه.

تدور فلسفة «برمنيذس» كلُّها، حول (الكائن)، وحول (الظاهرات)، وللمعرفة طريقان: (طريق الحقيقة)؛ التي تقودُنا إلى معرفة الكائن، و(طريق الظن)؛ التي سار عليها الفلاسفةُ الإيونيون، وهي طريق وَهْم وضلال.

1 ـ أما (الحقيقة) فهي: أنَّ الكائن وحدَهُ موجود، وغيرَ الكائن لا وجودَ له، «الكائن موجود، واللاّكائن غيرُ موجود، ولا مَفرَّ من هذا!». واللاّكائن لا يُمكن تصوُّرُه؛ لأنَّ التصوُّر والكونَ شيءٌ واحدٌ بعينه.

ونتيجة ذلك واضحةٌ؛ يُمكنُ عَرْضُها على الوجه التالي:

ليس للكائن بدء؛ إذ لا يُمكن أن يَصدُرَ عن العَدَم، وليس له نهاية؛ إذ لا يُمكن أن يصير إلى العَدَم. فهو إذن أزليٌّ، أبديٌّ، غيرُ قابل للتغيُّر والانقسام، وليس له صفاتٌ سوى ذاته؛ لأنَّ كلَّ ما ليس ذاته، غير موجود أيضاً، وهو غير خاضع للصيرورة؛ لأنَّه إنْ صار إلى شيء؛ فإمَّا إلى ذاته، وإمَّا إلى غيرِ ذاته، أي: إلى اللاّكائن وهذا مُحال.

2 ـ أما الطريق الثانية، فإنَّها تُوصلُنا إلى الظاهرات، وهي لا تَصلُحُ لأنْ تكونَ موضوعاً للعلم؛ لأنَّها لا تتعدَّى نطاقَ الظنِّ، والظنُّ لا يَليقُ بالحُكماء، ومع ذلك فإنَّ «برمنيذس» يَعرضُ ما يُسمِّيه بـ: الظُّنون الكاذبة. وهو في عرضه هذا، يأتي بمزيج من الفيثاغورية والطبيعيّات الإيونية، دون أن يزيدَ عليها شيئاً يُذكر.

ومهما يكنْ من أمر، فإنَّ فكرة جديدةً دخلت حقلَ الفلسفة مع «برمنيذس»، هي: وجودُ رُتبَتَين من المعارف: رتبة اليقين؛ التي يُوصلُ إليها المنطقُ، ورتبة الظاهرات المتغيِّرة؛ حيثُ يظلُّ الخطأُ مُمكناً، ويظلُّ الشكُّ يُخامرُ العقولَ النيِّرةَ.

زينون:

جاءت فلسفة «برمنيذس» تُناقضُ آراءَ «هيرقليطس» في الحركة، والصَّيرورة، كما جاءت تُنافي ما تُؤدِّيه إلينا حَواسُّنا، وما يُظهِرُهُ لنا الاختبارُ اليوميُّ؛ فلم تقبل العقولُ فلسفةً تَظهرُ منافيةً للواقع المحسوس، وتظلُّ مُفتقرةً إلى البراهين العقلية. فجاء زينون الإيلي ـ أحدُ تلامذة «برمنيذس» ـ بأربعة براهينَ عقليَة، ورياضية؛ لدَعمِ آراءِ أُستاذه، قسَّمها إلى قسمين، وبيَّن في بُرهانَي القسم الأوَّل: أنَّ الحركةَ مُحالَةٌ؛ إذا كان الزمانُ والمكانُ ينقسمان إلى ما لا نهايةَ له، وفي بُرهانَي القسم الثانيَ: أنَّها مُحالةٌ أيضاً؛ إذا كانا مُركَّبين من وحدات لا تتجزأ.

لن ندخل في عَرْض هذه البراهين مُفصّلةً، لكنّنا نذكرُ اثنين منهما على سبيل المثال.

فلنفرض أن أحد الأفراد [آ] يطارد سلحفاةً متجهةً نحو النقطة [ن]:

آ ــــ س ــــ س1 ــــ س2 ــــ س3 ــــ ن

يقول «زينون»: إن هذا الفرد [آ] لن يُدرك السلحفاةَ أبداً؛ لأنَّه عندما يصل إلى نقطة انطلاقها [س] تصبح هي في [س1]، وعندما يبلغَ [س2] تكون قد أصبحت في [س3]، وذلك إلىَ ما لا نهاية له؛ لأنَّها ما إنْ يصبح في موضعها حتى تكونَ هي قد أصبحت في موضع آخر.

ولنفرض الآن «الكائن» مُركّباً من وحدات لا تتجزأ، و«الزمانَ» مؤلَّفاً من وحدات متميزة. ففي هذه الحالة يظلُّ السهمُ الطائرُ ساكناً؛ لأنَّنا لا نستطيع أن نُدرِك مُتحركاً بينَ نقطتينَ، أو بين آنَيْنِ مُتتابعين.

فهكذا نرى هذه المدرسةَ، تَرفُضُ الملاحظةَ الحسيَّةَ باسم البرهان العقليِّ، وهكذا نرى الفلسفةَ اليونانيةَ منذ أوَّل نَشأتها؛ تَتَّخذُ لها اتجاهَين مُتقابلَين، تُمثِّلُ الفلسفةُ الإيونية، وخاصّةً فلسفةُ «هيرقليطس» أحدَهُما، وتُمثِّلُ فلسفةُ «برمنيذس» و«زينون» الاتجاهَ الآخرَ.

فالملاحظة الحسيّةُ تدفع الفئةَ الأولى إلى تأكيد الصيرورة العامة، ويَجعلُ البرهانُ العقليُّ عند الفئة الثانية من «الكائن» مُطلَقاً ثابتاً غيرَ مُتبدِّل، فأيّة فئة هي على حقّ فيما تَدّعيه . . !؟

رأت بعض العقول المُتَّزنة: أنَّ في كلِّ مذهب قسطاً من الحقيقة، وستبدو لنا الفلسفةُ اليونانيةُ، فيما بعدُ، مُحاولاتٌ مختلفةٌ تَرْمي إلى التَّوفيق بين وجهَتَي النظر هاتَين، أي: إلى إيجاد موضوع ثابت يَصلُح لأنْ يكونَ موضوعاً لعلمٍ يقينيٍّ؛ علَى الرّغم ممَّا يقع تحت حواسِّنا من ظاهرات متغيّرة متبدِّلة. فاعتقد بعضهم: أنَّ هذا الموضوع موجودٌ، وذهب آخرون ـ وهم قلائل ـ إلى: أنْ لا وجودَ للحقيقة، وإنْ كانت موجودةً فلا سبيل إلى معرفتها.

obeikandi.com

4 ـ الذرّيّون

إنْ كان لا سبيل إلى إنكار «الكائن» مع استحالة إنكار الصيرورة، فمن الضّروريّ إيجادُ حلٍّ متوسِّط، يُوفِّق بين كلاَ المَذهبَين. وهذا الحلُّ، نَجدُهُ أوّلاً في الفلسفة الذرّيّة؛ التي حاولت، في الدّرجة الأولى ـ كما يرى «بالوريس» ـ تحديدَ العلاقة بين الواحد والكَثْرة. ويصبح المذهبُ الذرّيُّ: عددياً ذهنياً عند «فيثاغورس»، كما رأينا، ومادّياً عند «لوكيبوس» و«ديموقريطس»، ورُوحانياً عند «أنكساغوراس».

لوكيبس وديموقريطس:

يُعتبر «لوكيبس» و«ديموقريطس» الواضعَين الحقيقيَّين للمذهب الذرّيّ.

لا شك في أنَّ «ديموقريطس» أشهرُ مُفكّري القرن الخامس ق. م، وأبعدُهُم أثراً.

وقد ترك مَذهباً فلسفياً كان له في تاريخ الفكر البشريّ دَويّاً هائلاً، ولا تزالُ أصداؤه تَتردَّد حتى عصرنا العلميّ الحاضر.

ولد «ديموقريطس» حوالي عام 460 ق. م في (إبديرا). ويقال: إنَّه عاش قرناً كاملاً، وإنَّه كان تلميذاً لـ «لوكيبس» المالطيّ.

وقد جُمعَت مؤلَّفاتُ المفكّرين، بعد موت «ديموقريطس» في مجموعة تُعتبرُ موسوعةً للمعارف الإنسانية في ذلك العصر، وتُبرهنُ عن عُمْق في التفكير، وسَعَةً في المعارف قَلَّ نظيرُهُما. وقد أضاف «ديموقريطس» على فلسفته الطبيعيةِ ملاحظات نفسيةً وخُلُقيّةً؛ فيها من البساطة والعُمْقِ ما يَجعلُها تحتفظ حتى يومنا هذا بقيمتها العلميَّة.

لا يختلف المذهبان إلاَّ في بعض التفاصيل، أمَّا المبادئ العامةُ التي يَرْتكزان عليها فواحدةٌ.

ويبدو أنَّ مذهب «لوكيبس»، في أول أمره، كان وليدَ الملاحظة والمَنْطق. فذهب ـ كما ذهب أربابُ المدرسة الإيليّة ـ إلى المقابلة بين «الكائن» و «اللاكائن»، لكنَّه قال: بوجود شيءٍ ليس بكائن ولا معدومٍ، وأنّ «الكائن» لا يُمكن أن يصيرَ إلى «العَدَم»، وأنَّ «العَدَم» لا يُمكن أن يُعطيَ «كائناً»، و«الكائن» هو الملأ، و«العدم» هو الخَلاءُ. وهكذا يوجد كائنان متعادلان:

«الملأ» و«الخلاء»، وهذا ما يُظهرُه لنا الاختبارُ. فلولا الخلاء، لَمَا كانت حركةٌ، والحركة موجودةٌ ولا سبيلَ إلى إنكارها.

و«الكائن» مُركَّبٌ من عدد لا نهايةَ له من العناصر البسيطة الثابتةِ الصلبةِ، التي لولاها لَما كان المُركَّب.

وإذا ما عُدنا إلى الملاحظة والاختبار اقتنعنا بوجود دقائقَ ماديّة متناهية في الصِّغَر، مثلَ التي نَراها تَرقُصُ في شُعاعة من شُعاعات الشمس، وكحُبَيبات الألوان التي تنتشر في السوائل، ودقائق الرائحة المنتشرة من العطور. ولهذه العناصر أو الذرّاتِ ثلاثُ صفات أساسيةٍ هي: الشكلُ، والترتيب، والوضع.

فالحرفان [هـ ع] يختلفان في الشكل، وقد يختلفان أيضاً في الترتيب: [هـ ع]، [ع هـ] وفي الوضع: [هـ ٩] [ع ٣].

كان في البدء خلاءٌ وكتلةٌ من الذرّات، لكنَّ الذرات تَدهورتْ في الخلاء، واتَّحدت؛ فكان من تأليفها تأليفاً آلياً عَفوياً عوالمُ لا تُحصى، وللذرَّات حركةٌ لا بدء لها ولا نهاية، تَحملُها على التَّصادُم والتَّشابُك، فتتكوَّن منها الأجسامُ المختلفةُ.

والنفس كالجسم؛ مُركَّبةٌ من ذرّات كروية الشكل، هي في غاية اللَّطافة والصِّغَر، وهي تتخلّل جميعَ الأجسام حتى التي تبدو لنا منها عديمةَ الحركة والحياة. وما الإحساسُ، والشعورُ، والعاطفة، والفكر، سوى ظاهرات ماديّة. فالإدراك، مثلاً: يَنجُمُ عن قَبول الصُّوَر التي تأتينا من الأشياء الخارجية، فتخترق الهواء، وتدخل إلينا في ثقوب تتخلَّل الذرَّات. ولا تختلفُ هذه الصُّوَرُ عن الأشياء بتركيبها، بل تختلف عنها بحجمها وخفَّتها، وهي تطبع في أعضائنا الحسّية آثاراً تبقى.

لا يختلف مذهب «ديموقريطس» في خطوطه الكبرى عن مذهب «لوكيبس»، لكن التلميذ يُدخلُ بعضَ التعديلات المُهمَّة على آراء أُستاذه. فالذرّاتُ الأزليةُ منتشرةٌ في الأزل؛ في الفراغ اللاَّ مُتناهي، وكتلة الذرّات تُعادلُ كتلةَ الفراغ، وهي مثلها غير متناهية. وهكذا نرى «ديموقريطس» يَعدِلُ عن نظرية الفراغ العظيم المتميِّز في البدء عن الذرَّات والتركيبات؛ التي

تَحصلُ عن اتِّحاد الذرَّات عارضةً، والعوالم غير المتناهية تتكوّن وتزول إلى ما لانهاية له. ولجميع الظاهرات في الكون علّة واحدةٌ تزدوج هي والآليةُ والضرورةُ من جهة، والمُصادفة والبَخْت من جهة أخرى.

وللمصادفة والضرورة والآلية عند «ديموقريطس» معنىً واحد، وهي علّة وحيدةٌ، لا يُدركُها العقلُ، تُحدثُ ائتلافَ الذرّات، لكنَّ هذه الذرّات بعد ائتلافها، تَسيرُ وِفاقاً لقوانينَ حتميّة لا يعود للمصادفة بها علاقة.

والنفس واحدةٌ، مؤلَّفةٌ من ذرّات كروية، لا يُمكن أن تتميّز فيها الروح عن العقل، ولكنَّ النفس مُنبثَّةٌ في جميع أجزاء البدن، أمّا العقل فمركزه الصدر.

وللنفس ثلاثة أنواع من التأثيرات: الإحساس، والفكر، والشعّور، وكلُّ هذه التأثيرات نسبيةٌ، ونحن لا نعرف العالم الخارجيَّ إلاّ عن طريق التأثيرات الحسّية، واللون، والرائحة، والطَّعْم، والصوت؛ كـ: اللَّذة، والألم. والتأثيرات الأخرى كلُّها نتيجةٌ لعمل مُشترَك بين ذرّات الأشياء المُدركة، وآلاتنا الحسّية، وهذا معناه: أنّ كلَّ إحساس إنّما هو أمرٌ مُتعارَفٌ، وأنّ إدراكَنا لا يكون لحقيقة الأشياء، بل لكيفيّاتها المختلفة.

ولعلَّ أهمَّ ما في فلسفة «ديموقريطس»: آراؤهُ الخُلقيّةُ، وهي آراءٌ تفاؤليّة تجعل سعادةَ الإنسان في الرِّضى والقناعة والحُبُور، وتَعتبرُ الحياةَ الاجتماعيةَ ضرورةً لا بُدَّ منها للدفاع والتعاون على قضاء حاجات الحياة الأساسية.

انكسغوراس: 499 ـ 428 ق.م:

لا يختلف مذهب «أنكسغوراس» اختلافاً كبيراً عن مذاهب معاصريه ومَن تَقدَّموه، لكنَّه جاء بعنصر جديد كان من شأنه أنْ يَقلبَ التفكيرَ الفلسفيَّ رأساً على عَقب. كان «أنكسغوراس» إيُّونياً، لكنّه استوطن (أثينا)؛ حيثُ استدعاه «بريلكس»، وظلَّ فيها نحواً من ثلاثين سنة.

وقد علَّم: أنَّ أجزاءَ جميع الأشياء مُركَّبةٌ من جُزَئيات أصغر منها حجماً، تنقسم إلى ما لا نهايةَ له، ومهما ذهبنا في التقسيم لا نجدْ إلاّ أجزاءً مُجانسةً للكلِّ. فالعظم: مُركَّبٌ من جُزئيات عظمية، وإنْ قسمنا الدم إلى أقصى حدود التقسيم لا نجدْ سوى الدم. فلم يكن في

البدء إلاّ مزيجٌ كليٌّ واحدٌ مساو لذاته، غيرَ قابل للزيادة والنقصان، ولا يمكن حصرُهُ أو قياسُهُ. وهو يتحرَّك بحركة داخليةٍ قوية تَفوقُ بسرعتها جميعَ الحركات التي نُدركُها الآن، وجميع الأشياء التي نراها خرجتْ من هذا الكل، وكان خارجاً عن هذا الكلِّ، متميِّزاً عنه؛ روح أو عقل(Voo 5)، نَقيٌّ أزليٌّ، له قوّة الإدراك، وقدرةٌ لا حدَّ لها. ودخل العقل الكلَّ فأخذ في تنظيمه وتمييز أجزائه، حتى كان الكونُ على الشكل الذي نراه فيه، لكنّ هذا التنظيم لم يَتمَّ إلاَّ تدريجياً، وعلى مراحل، وِفاقاً لترتيبٍ دقيقٍ، وقوانينَ ثابتة.

وليس في الكون حياةٌ أو موتٌ. فالولادة معناها: الانفصال الجزئيُّ عن الكلِّ، والموت معناه: العودةُ إلى هذا الكلِّ، والانفصال والاتصال لا يَتمّان إلاَّ تحت تأثير العقل.

وفي كل جسم ـ مهما كبر ـ، وفي كل جزء ـ مهما صغر حجمه ـ مجموعةٌ من الصفات والجراثيم، كـ: البرودة، والحرارة، واليبوسة، والرطوبة، والنور، والظلام، والعناصر الأربعة، ويذور جميع الأشياء. فلا صغَر ولا كِبَرَ بالمعنى المُطلَق، أما العقول الفرديةُ فمتجانسةٌ، لا تختلف سُمُوّاً في الإنسان عنها في الحَيوان، والفوارق البادية بين درجات الذكاء تعود إلى الفوارق الجسمية، فتعود سيادةُ الإنسان الظاهرة إلى أن له يَدين.

نرى أن الفلسفة قد اتخذت مع «أنكسغوراس» اتجاهاً جديداً، وحدّدت بعضَ المشكلات التي ستدور حولَها جميعُ أبحاثها، كـ: أزلية الكائن، وأسباب الموت والفناء، ونسبيَّة المعَرفة، والعلاقة بين الطبيعة والروح، وكلُّها عناصرُ تنتظر عقلاً ثاقباً يُرتِّبُها في نظام فلسفيٍّ دقيقٍ مُحكَم الأجزاء.

أمباذقليس:

لا يمكننا أن نُلحقَ «أمباذقليس» بإحدى المدارس التي دار عليها كلامُنا، ولكنْ لمَا له من الأهمية في تطوّر الفكر الفلسفيِّ، جعلنا نُثبتُهُ هنا؛ لأنَّ مؤلَّفاته تُقدِّمُ لنا الحاصلَ المُقتَضَبَ لعصر من التفكير والبحث.

وُلد «أمباذقليس» في (أغريجنتي) ـ من أعمال صقلِّيَة ـ حوالي عام 444ق. م.

ويبدو لنا من خلال ما وصل إلينا من مؤلَّفاته، ومن خلال ما حَاكَتْهُ حولَهُ الأساطيرُ المُتضاربةُ؛ التي حاول هو اصطناعَها حول شخصه مُفكِّراً بالجمع بين النظرة العميقة الشاملة للكونَ، والآراء البدائية التي تُذكِّرُنا بأول عهد التفكير الإنسانيِّ.

وله آراءٌ دينيةٌ ذاتُ صلة وثيقة بالفيثاغورية، وآراءٌ فلسفيةٌ تَنحصرُ في:

أنَّ العالم مُركَّبٌ من العناصر التقليدية الأربعة، وهي أزليةٌ لا فناءَ لها، مُتعادلةٌ بالكَمِّ، تَتركَّبُ تركيبات مختلفةً، تَنتُجُ عنها جميعُ الأشياء مع كلِّ ما فيها من اختلاف وتَنوُّع. وتركيبُ هذه العناصر وانفصالُها خاضعان لقانون أزليٍّ، ذي حَدَّين مُتناقضَين هما: الحبُّ والبغضاء، أو بتعبير عصريٍّ: التجاذبُ والتباعدُ. فإذا سادَ الحبُّ اتَّحدتَ العناصرُ، وكان السلام، وإذا سادتِ البغضاءُ، تنافرت، وكان الحربُ. وكلُّ ما نلاحظه في الكون من تغيُّرات وحركاتٍ إنْ هو إلاَّ نتيجةٌ للعراك المستمرِّ القائم بين هذين المبدأين.

ففي الكون حالتان متعاقبتان:

في الحالة الأولى: تكون العناصر الأربعة مُتحدةً اتحاداً وثيقاً، تكون أجزاؤُها كرةً لا حَدّ لها، ولا تَمييزَ بين أجزائها، وهي أشبهُ ما يكون بكائن «برمينذس»، لا متناهية في جميع اتِّجاهاتها، ولا خلاءَ فيها، ولا وجودَ لشيء خارجاً عنها.

والحالة الثانية هي: حالة الكون المُرتَّب الذي نراه، أي: حالة الترتيب الذي تَنفصلُ فيه أجزاءُ العناصر وتتميَّز، وتُحدثُ الكَثرةَ، حتى ينتصرَ الحبُّ على البغضاءُ، فتعود جميع هذه العناصر إلى وحدتها الأولى، وهكذا إلى ما لانهاية له.

ولعلَّ أهم ما في آراء «أمباذقليس»، تلك التي تتعلَّق بالنفس والحياة. فالحياة قد نشأت من القوى الآلية السائدة في الكون، وهي وليدة المصادفة، وقد ظهر النباتُ من جوف الأرض، ثم تلاه الحيوانُ، ولكلِّ الكائنات الحية نفسٌ تُحسُّ وتُدركُ. وجميعُ الأنفُس الجزئية من أصل واحد، تنتقل من جسد إلى جسدٍ آخرَ، في صيرورة لا نهاية لها، عن ذنب قديم قد اقتَرَفَتْهُ، ولا يَخلُصُ منها ويعود إلى فردوس الآلهة الخالدين إلاَّ الأنفسُ التي تتحلَّى بالفضيلة، وتستحقُّ الخلاصَ.

وقد حَرَّم «أمباذقليس» أكلَ اللَّحم؛ لأنَّ مَنْ يأكُلُه يتغذَّى بجُثث أقاربه.

ترعرع أكثرُ الفلاسفة الذين آتَينا على ذكرهم خارجَ (أثينا)، لأنّ (أثينا) لم تَحتلَّ المقامَ الأوّلَ بين المدن اليونانية إلاَّ في عهد الحروب ضدَّ الفُرْس، منذ عام 480 ق.م، وازدهرت فيها الفنونُ والآدابُ والعلومُ، خاصّةً في عهد «بريكلس» 460 ـ 430 ق.م. بينما أخذت الأخلاقُ بالانحطاط، وأصبح هَمُّ الشُّبَّان الأوحدُ السّعيَ وراءَ المَلذَّات وكسب المال، وآلَتْ الحالةُ الاجتماعيةُ والسياسيةُ بعد 430 إلى الفوضى، ولم يبق للمعرفة والفضيلة من قيمة في مجتمعٍ يتسابَقُ فيه الناسُ بشتَّى الوسائل المشروعة وغيرِ المشروعة إلى الوظائف والمراتب والثروة.

السفسطائيون:

ومن الطبيعي أنْ يُصبحَ للفصاحة ووسائل الإقناع، في مجتمع هذه حالُهُ، شأن عظيم. ولم يكن السوفسطائيون سوى رجال يكسبُونَ عَيشَهم بتعليم الشُّبّان بعضَ الأشياء التي كانوا يعتقدون أنَّها تنفعهم في حياتهم العمليّة. وكان لتَضارُب الآراء الفلسفية، واختلاف المذاهب حول الموضوعات الواحدة ردُّ فعلٍ عند بعض المفكرين، فشَكُّوا بوجود حقيقة مطلقة، وراحوا يُنادُون: بأنَّ الحقيقَة أمرٌ نسبيٌّ، تختلف باختلاف العقول.

إنَّ أقدم السوفسطائيين المعروفين هو «بروتاغوراس الأبديريُّ»، الذي ولد حوالي عام 484 ق.م.

تتلخَّص فلسفةُ «بروتاغوراس» بتبرير فنِّ الخطابة. ولعل «بروتاغوراس» أخذ عن «ديموقريطس»، أو عن «هيرقليطس» الاعتقادَ بالصَّيرورة، وعدم الاستقرار، ورأى أننا نعلم كلَّ ما نعلمُهُ عن طريق الحواسِّ، وأنَّ كلَّ إحساس لا يكون صحيحاً إلاَّ في الحين الذي نُحسُّ فيه. ولكلِّ إنسان إحساساتٌ خاصةٌ مُتغيِّرةٌ، هي القياسُ الوحيد الممكنُ للحقيقة. فالإنسانَ الفرديُّ في كلِّ آنٍ من آنات حياته، هو المقياسُ لكلِّ شيء؛ للكائن ولغير الكائن. فإنْ صحَّ هذا، وهو صحيح، فعلى السوفسطائي أنْ يُعرضَ عن البحث العلميِّ، الذي لا نَفعَ منه، ويُكبَّ على معالجة الفنِّ الذي يُمكِّنُ الإنسانَ من حمل غيره على ما يريد أن يعتقده؛ ليتسلَّطَ بهذه الطريقة على عقله وشعوره، ويُوجِّهَ سُلوكَه وِفاقاً لرَغَائبه، وما هذا الفنُّ إلاَّ فنُّ البلاغة.

أخذ السوفسطائيّون يبحثون في جميع المعارف الإنسانية من: طبٍّ، ورياضيات، ونَحْت، ورَسْم، وموسيقى، ويدّعون أنهم يعرفونَ هذه الفنونَ أحسنَ من معرفة أربابها لها، وقاموا ينتقدون الأوضاعَ الاجتماعيةَ والسياسيةَ والدينيةَ والخُلُقيّةَ فأدخلوا في المجتمع الأثينيِّ عُنصراً قوياً من الشكِّ، كان خميرةَ قلقٍ واضطراب.

وكان لابُدَّ للسُّوفسطائيين من دراسة دقيقة للُّغة وإمكاناتها التعبيريَّة؛ لأنَّها وَحدَها أداةُ الإقناع، ولعلَّ «بروتاغوراس» أوّلُ مَن مَيّزَ بين المُذكَّر والمُؤنَّث والمُحايد، وقسَّم الكلامَ إلى: اسم، وصفة، وفعل، وحدَّد أجزاءَ الخطاب المتين، والبنيان من: مُقدّمة، ومَدْخَل، وتَرتيب، وعَرْض، ونِقاش، وتَفْنيد، وخاتمة، وهكذا يكون أوّلَ من وضع أُسُسَ المَنْطِق، والصَّرْفِ، والنَّحْو.

وسار «غورجياس» على خُطَى «بروتاغوراس»، وألّف كتاباً في الطبيعة؛ وصل فيه إلى نتائجَ سلبيّة، يُمكنُ تلخيصُها كما يلي:

ليسَ ثَمّةَ من شيءٍ موجودٌ، ولئن كان ثَمّةَ شيءٌ فلا يُمكنُنا معرفتُهُ، وإنْ تَوصَّلنا إلى معرفته، فإنَّنا نظلُّ عاجزين عن التعبير عن هذه المعرفة لغيرنا.

لذا أجمع السوفسطائيون على تمجيد فنِّ الكلام، والبلاغة، وقالوا: إنَّ مهنةَ الخطابَة تُوصِلُ إلى جميع الغاياتِ التي يَنشُدُها الإنسانُ؛ فالخطابةُ قادرةٌ على تجديدِ النفوس، وبناءِ عالَمٍ جديد.

ولا نظنُّ أنَّ عمل السوفسطائيين كان مجرّدَ عمل هَدَّامٍ ـ كما اتَّهَمَهُم بذلك «سقراط» و«أفلاطون»؛ ولَبِسَتْهُمُ التُّهَمَة. فقد أنشأوا المنطقَ، وجدَّدوا الفلسفةَ والأخلاقَ، وفتحوا في وجه الماوَرَائيَّات باباً وَلَجَهُ «أفلاطون»، وأدخلوا في اللغة مُرونةً، كما وضعوا الأُسُسَ المتينةَ لتعابيرَ علميةٍ، وأعدُّوا الفكرَ الإنسانيَّ لمعرفة إمكاناته وحُدُوده.

رصيد الفلسفة اليونانية
قبل سقراط

بدأ «أفلاطون» وَضْعَ مؤلَّفاته سنة 380 ق.م، وفيها بُذورُ الفكر الغربيِّ كلُّها.

وكان «طاليس» قد بدأ البحثَ عن الحقيقة حوالي سنة 580 ق.م.

في أقلَّ من قرنَين، وُضعت أُسُسُ الفلسفة، وتَحدَّدت المشكلاتُ التي ستَشغَلُ العقلَ البشريَّ عشرين قرناً، ووُجِدَتْ الحلولُ لأهمِّ هذه المشكلات. في هذه الفترة القصيرة من الزمن، توصَّل أوّلُ مُفكِّري الإغريق بقوَّة حواسِّهم، أو بدقَّة مُلاحظَتهم إلى اكتشاف وحدة الكون وراءَ الظاهرات المتعددة. فقد أخذ «أنكسمندرس» الصورةَ الهزيلةَ التي رَسَمها «طاليس» عن الكون، ووصل فيها إلى تَصوُّر عدد من العوالم لا نهايةَ له، يتحرَّكُ في الفضاء الفسيح، وينشأ ويتلاشى، ولا يَخلُدُ إلى تَجدُّدها، وتظهر فيها الحياةُ، وتنمو، وتتفتَّحُ عن الإنسان والحيوان، وتنتهي مع «أنكسمندرس» إلى مفاهيم اللاَّنهاية، والأزل، والآلية، والضرورة، والتطوّر، والنظام، والفضاء.

ولئن كان الكون في جملته واحداً لانهاية له، فالكائنات الموجودةُ فيه تتحوّل وتتغيَّرُ بدون هوادة.

هذا ما رآه «هيرقليطس». وقد فتح بذلك البابَ على مِصراعَيه لدخول الشكِّ في مدى المعرفة الإنسانية.

والشكُّ شرطٌ أساسيٌّ من شروط العلم، ولَجَهُ «برمنيذس» فوجد أنَّ للحقيقة طريقين: طريقَ اليقين، وطريقَ الظنّ. تقودنا الأولى منهما: إلى الكائن الثابت، وتؤدِّي بنا الثانيةُ: إلى الظاهرات المتقلِّبة الخدَّاعة.

ولم يمنع المفكرين نَظرُهَم إلى الكون من أن يُعيروا الطبيعةَ البشريّةَ اهتمامَهم؛ فساروا بالطبِّ، والأخلاق، وعلمِ النفس خُطُوات واسعةً إلى الأمام، وجاء الفيثاغوريّون فأضافوا إلى هذا كلِّه: معرفةَ الأعداد، والأشكال الهندسية، وخصائصها. أمّا الذرّيّون فقد حاولوا التوفيقَ بين مُعطَيات الحواسِّ والنّظرِ العقليِّ المجرَّد.

وجاء «أنكساغوراس» وأحلَّ محلَّ الآلية العَمياء؛ التي تُسيِّرُ الكونَ، عقلاً مُنظِّماً للكون، وفاقاً لتصميمٍ مَنطقيٍّ واضحِ المَعالم، دقيق الصُّنع. لكنّ هذه الاكتشافات العلميّةَ، والتقديراتِ العقليةَ التي حاربت الاعتقاداتِ الشعبيةَ والخرافات، لم تَقضِ عليها قضاءً تاماً، وظلَّتْ حَيّةً في مُخيِّلة الشعب، مَنها يُغَذِّي اعتقادَهُ، وعليها يبني آمالَهُ.

ولم يَبزُغْ فجرُ القرن الخامس، الذي ستنشأ فيه أعمقُ الفلسفات التي عَرفَتْها الإنسانيةُ وأقواها، حتى كانت أهمُّ المفاهيم النظرية، والقيَمُ العقليةُ التي مازلنا نتمسّك بها حتى اليوم قد تَحدَّدتْ، أو كادت تَتحدَّد. وما نسمّيه اليومَ بالمَادّية والحُلُوليَّة والوحدانية والرَّوحانية والقَدريّة والتّشكليّة والذرّة والتطوّر، وما يُكوِّنُ العناصرَ المُقوِّمةَ لتفكيرنا الدينيّ والعلميّ والخُلُقيّ، كلُّ ذلك كان مألوفاً لدى مُفكِّري القرن الخامس اليونانيّ، وقد صدق «فيكتور بروشار» عندما قال: ((لا نجد مذاهب فلسفية إلا في العصور القديمة)). وقد أضاف «ريفو» إلى ذلك قولَهُ: ((وكلُّ هذه المذاهب تَكوَّنت قبل «أفلاطون»، في الفترة الزمنية المُمتدّة بين القرنين السادسِ والخامس قبل الميلاد)).